١-المبحث الأول

إيجابيات مفهوم العقلانية التطبيقية

لعلنا لا نكون مبالغين إذا قلنا أن باشلار قد وضع دراسة الابستمولوجيا هذه في الموضع الذي أراده كانط، وإن كانت دراسة كل واحد منهما لمفهوم العقل وتناوله مختلف مقولاته رغم اختلاف المنطلق والأرضية الفلسفية والعلمية التي بنى كل واحد منهما مشروعه.

لكن نقطة الاتفاق هي إعادة النظر في مفهوم العقل، ومن هذه الزاوية نقول أن باشلار قد اقتحم مجالا فلسفيا خطيرا- إن صحّ هذا التعبير-، لأن الأمر يتعلق هنا بما نفكر به ونفكر فيه، بأهم مقولة من مقولات الفلسفة، إنه المصنع الذي تنشأ فيه المفاهيم والرؤى والأفكار، إنه الموجه لحركية الفكر والعلم على السواء. إنها **مقولة العقل**. هذا من جهة ومن جهة أخرى نقول أن باشلار أراد لهذا المفهوم المعاد ترتيبه والنظر فيه أن يقترب أكثر من الواقع، ليصل درجة الانطباق وهو أمر ليس يسيرا على الفلسفة ولا على العلماء ولا على ففلاسفة العلم في حد ذاتهم، وعلى هذا يعتبر البعض أن باشلار قد دخل مغامرة ومخاطرة فلسفية لا يضمن نتائجها ولكن مع هذا فهو قد أفلح في الكثير مما أراد أن يصل إليه.

من النقاط التي نرى أن باشلار قد أفلح فيها، **أو بالأحرى قد أسس لها وهي أنه أراد أن يجعل من العقل مقولة إبستمولوجية تمتاز بالحيوية والحركية والتجدد والتغير والتبدّل.**

-ربط بين هذا التجدد الذي يصيب العقل والجديد الذي يفرزه العلم بمختلف حقوله ومجالات بحثه.

-الدعوة إلى تأسيس فلسفة علم مطابقة حقا للفكر العلمي الجديد في كل حقبه التاريخية.

-قراءة الفلسفة قراءة نقدية لا من أجل التوقف عند مقولاتها ومفاهيمها كما يفعل البعض من الفلاسفة، بل من منطلق التحرر منها وتجديد مفاهيمها وأفكارها.

-قراءة العلم قراءة نقدية لا من أجل التسليم بنتائجه وحسب، بل من أجل الدعوة إلى تجديد أبحاثه ومناهج تناوله للواقع.

-الدعوة إلى ضرورة ملازمة الفيلسوف للعالم والاقتراب منه في أعماله ومناهج بحثه ونتائج جهده.

-كشف باشلار عما أصاب العقل الفلسفي من جمود وركود عطل حسب رأيه حركية الفكر التي ينبغي أن يكون عليها، وفي الآن ذاته أماط اللثام عن القدرات والطاقات والمؤهلات والإمكانات التي يتوفر عليها العق إن هو اقترب أكثر من حقل العلم.

-ومنه فهي دعوة صريحة مُؤسسة على تفاعل العقل الفلسفي مع العقل العلمي، لينتجا لنا في الأخير عقلانية تطبيقية تجمع بينهما فتزول الهوة الفاصلة بينهما عبر الزمن.

-نادى باشلار بفكرة خضوع المفاهيم الفلسفية إلى جدلية تخارجية، تتغير مضامينها بتغير نتائج العلوم؛ وهي بالتالي دعوة إلى أن تكون عقلانية الفيلسوف متيقظة، متفتحة، قلقة، تنتظر الجديد، لتجدد ذاتها، وهذا سر قوتها وبقائها.

-صار العلم هو الذي يبدع الفلسفة وهي في الآن ذاته تنتجه وتوجهه وتحدد معالمه وترسم آفاقه وتصحح أخطاءه، إنها تزوده بالأسس النظرية خصوصا منها الرياضية التي يعتبرها باشلار شرطا من شروط بناء العلم.

-يتجلى هذا أكثر في تأطير بنى العلم ونتائجه ووضعها في صور نظرية، إذ أنه لا يمكن أن نجد نظرية من دون تطبيق، وإن كان هذا في غياب العلمية صفة

حتمية، ولا تطبيق من دون نظرية، وإن حدث هذا فإن العلمية هنا تكون غائبة كذلك.

-كشف باشلار عن مفهوم جديد للواقع، لا نقول أنه هو الذي أنتجه، وإن كان له الفضل في الإشارة إلى أن الواقع لم يعد ما هو معطى وإنما صار الواقع يبنى. فهو هنا يتبع حركية العلوم في كل حقبها.

-أعطى باشلار مفهوما جديدا للعلم كان نتيجة للعلاقة الوطيدة التي تسعى أن تربط الفلسفة بالعلم، فالعلم عنده يتجدد، يعيد بناء ذاته، يعاود تركيب أطره في صور نظرية، يهدف إلى أن تكون تطبيقية، إنه ينفتح، يتغير، يغتني، ينمو، ينحوا منحى الاكتمال.

-دعا باشلار إلى تجاوز ما سماه بالتناول المباشر للأمور، والتعامل البسيط مع الأشياء والوقائع، هذا التجاوز يخلّص العالم والفيلسوف من المباشرة. وفي هذا تأسيس للعقلانية: عقلنة الواقع، والانتقال من البسيط إلى المعقد، ومن واقعية الأشياء إلى واقعية القوانين.

-أعطى باشلار مفهوما جديدا للمعرفة، ووقف على جدليتها، هاته الأخيرة التي تُحوّل الواقع من صورته الوجودية ليصير واقعا معقلنا أو معرفيا بتعبير آخر، لا يتناول الأمور بنظرة جزئي فردية، مادية، بسيطة، كما كان يفعل الكثير من الفلاسفة والعلماء، وإنما صار الواقع يمتاز بالكلية وأساسه في ذلك تدخل الرياضيات.

-أشاد باشلار بلغة وجهد الرياضيات من دور في تأطير مقولات الفلسفة والعلم وفي بناء مشاريعه وفي تأسيس نظريته، إن الرياضيات هي الأرضية النظرية التي ينبني عليها كل مجهود علمي وفلسفي.

-سلط باشلار الضوء على العلوم الطبيعية، ونقب في علوم الفيزياء والكيمياء، ووقف على نقاط التحول والتغير، واستنبط منها القيم الابستمولوجية التي تعتبر بالنسبة له روح العقلانية التطبيقية.

-وهو في كل هذا يجعل العلماء يقرؤون أعماله من الداخل، ومن الخارج، من أجل التصحيح والتصويب والتعديل، وهل هناك قيمة معرفية أكثر من أن يكتشف العالم أخطاءه، ويصحّح هفواته لكي يتجاوز العقبات والعراقيل، ويرتقي أكثر بعمله وعلمه ونتائجه وخطابه.

-ربط باشلار العلم بفعل التعقل، بعدما كان صوته خافتا عند كثير من الفلاسفة الذين يعلون من شأن التجربة ويضعفون من صوت العقل.

-وفي الآن ذاته أضفى على التجريب قيمة معرفية، وبين أنه شرط للعقل لكي ينتج ويكتشف ويبدع ويصحح أخطاءه، بعدما كان صوت التجريب ضعيفا عند الفلاسفة العقلانيين. وحتى عند العلماء الذين يرون أن العلم هو بناء عقلاني محض، خصوصا في الفيزياء والرياضيات المعاصرين وبالخصوص الفيزياء الرياضية.

-رسم لنا باشلار خريطة إبستمولوجية، نقرأ بواسطة حدودها حلّ الفلسفات والعلوم، لنقف على مواطن القوة والضعف فيها، ونحدّد نقاط الالتقاء والتقارب ونسعى إلى إحداث التطابق الغائب بينهما، كل هذا من أجل أن يستفيد كل طرف من الآخر لبلوغ الحقيقة.

-ألحّ باشلار على ضرورة تماسك وتناسق النتائج المتوصل إليها نظريا، وعلى شرط تطابقها مع العقل ومع الواقع، وهذا ما أسماه بالعقلانية التطبيقية والمادية العقلية.

-دعم بمشروعه هذا الدراسات الإنسانية بكثير من المقولات الفلسفية والعلمية. ومنها مقولة الجدل، ومقولة القطيعة، ومقولة النقد، ومقولة التطبيق ومقولة العقلنة. والتي وظفها أتباعه إن على مستوى الدراسات التاريخية أو السياسية أو النفسية أو الاجتماعية أو الإيديولوجية كما عرفنا في الفصل السابق.

-أرسى دعائم متينة للعقلانية المعاصرة، التي صارت مشروعا إبستمولوجيا، وجد له أتباعا وأنصارا له، وهو لا يزال ينتشر ويمتد خصوصا في العلوم الإنسانية (ميشال فوكو، لوي ألتوسير).

-إقرار بعدم انغلاق العقل، وتوقفه عند مجموعة من المفاهيم والأفكار التي تجعله حبيسا وأسيرا لها فهي بالتالي تحد من نشاطه وتقلل من إبداع وتضيق من مجالات بحثه.

-ربط باشلار الدراسة الإبستمولوجية بالتحليل النفسي، كما وظفها في الكشف عن المكبوتات والخفايا الموجودة في باطن العقل، والتي كانت تعيق حركيته، وتحرف وجهته وتجعل نتائجه مريضة بالتعبير النفسي، فراح يحلل عقدها من أجل فك قيودها وتحليلها والكشف عن الجانب اللاشعوري منها وهو أمر نعتقد أنه ليس يسيرا، والذي يغامر بالغوص في أعماقه لا يضمن نتائجه ولا يحقق نسبة عالية من النجاح وإن كنا نقر لباشلار بكونه قد خطا خطوات عملاقة قطعت أشواطا كبيرة وشكلت أرضية معرفية إبستمولوجية يستفيد منها العلماء والفلاسفة من بعده.

-عقلانيته وقفت على مختلف بنيات المعرفة بصفة عامة من حيث طرقها لمسائل القبلية والبعدية، العقلانية والاختبارية، النظرية والتطبيقية وهذا ما لا نجده في مختلف المدارس الفلسفية السابقة.

-كما وقفت (العقلانية) على مختلف بنيات العلم من ملاحظة، فرضية، تجربة، نظرية، وقوانين، واكتشافات جعلت من العلوم الرياضية والفيزيائية حقلا تستمد منه مفاهيمها وفي الآن ذاته تسقطها عليه.

-يمكننا من خلال عقلانية باشلار- كما أشرنا في مقدمة هذا البحث- قراءة الفلسفة بصفة عامة قديمها وحديثها ومعاصرها ولم لا آفاقها، وكذا فهم مختلف بنيات العلم خصوصا الطبيعي والرياضي منه وحتى الإنساني والاجتماعي كذلك.

-إنها عقلانية تمكّننا من سلاح الفهم ولإدراك النقد والسجال والحوار مع الآخر. وفي كل هذا تعلمنا كيف نتحاور مع الفلاسفة والعلماء حوارا مثمرا فعالا، يعلي من شأن الخطاب الفلسفي الذي يعتبره باشلار نتيجة الخطاب العلمي.

-إنها عقلانية رغم رفضها للوحدة ودعوتها للتنوع فهي تهدف إلى التوحيد بين العقلاني والتجريبي، بين القبلي والبعدي، بين النظري والتطبيقي، وهذا من خلال التداخل الكبير الحاصل بين العقل والواقع بين الفلسفة والعلم.

-عقلانية نبهتنا إلى عدم الوقوع في تأويل الفلسفة لنتائج العلم حتى لا يقع العلم ضحية لجملة مقولات الخطاب الفلسفي.

-عقلانية ركّزت على الفعالية الرياضية وإعطائها قيمتها وحقها في العلم أكثر مما كانت عليه في السابق. إننا ونحن نقرأ فلسفة باشلار نجد أنفسنا داخل دائرة تحيط بنا العلوم من كل جانب ونوافذها مفتوحة تجاه غيرنا واتجاهنا والأمر كذلك اتجاه الفلسفات كلها على اختلاف مذاهبها واتجاهاتها وغاياتها. إنك تعيش مع عقلانية باشلار داخل فسيفساء معرفي تجعلك تعرف الناس جميعهم فيلسوفهم وعالمهم.

-إنها عقلانية تفك العزلة الفكرية والمعرفية التي نجدها ونعيشها داخل مختلف حقول الفلسفة والعلم، وبالتالي فهي فلسفة للجميع ومن الجميع، على الرغم من أن طابعها الصوري ضد الجميع ومع هذا فهي تستفيد في بعض الحالات من الجميع.

-أسّس باشلار لمقولات الثورة المعرفية فلسفيا وعلميا؛ ثورة ضد الهندسات الكلاسيكية، ضد الفلسفات، ضد العلوم القديمة فتكلم عن الهندسة اللاإقليدية، عن العقلانية اللاديكارتية، عن الفيزياء اللانيوتونية عن الكيمياء اللالافوازية، عن الفلسفة اللاحدسية عن المعارف اللاتجريبية... إنها فلسفة اللا.

-وقف باشلار على قيمة الخطأ ودوره الإبستمولوجي وقيمته التاريخية، واعتبره نقطة انعطاف العلم والفلسفة في آن واحد. إن الخطأ يعتبر ضرورة إبستمولوجية يصحّح فيها العقل ذاته، إنه بالخطأ يغتني ويتقوى إذا ما تجاوزه.

-فلسفة تدعو إلى التطهير من خلال تجاوز الخطأ وتحدي العقبات، وتصويب الهفوات وتقويم نتائج، وتصحيح الانزلاقات، وهذا التطهير يتم بطريقة شاقة صعبة لكنها غنية النتائج قيمة المغزى صائبة التوجه. أسس باشلار لمقولة اللا (النفي، الرفض) حتى لا تجعل العقل في سلبية متلقية، إنها تعلمنا كيف نتعلم كيف نتحفظ، كيف ننقد، كيف نتجاوز، كيف نعرف الخطأ، كيف نعرف الصواب، كيف يطور العقل نفسه، كيف يعدل من مقولاته، كيف يرتقي بخطابه، كيف يحيى حياة علمية وفلسفية قوية، كيف يتصل مع الآخر فيلسوفا كان أو عالما أو ابستمولوجيا أو أيديولوجيا.

-فلسفة أسّست لمقولة التصحيح وعدم قبول الخطأ، أنها تعلم العقل كيف ينقد ذاته، كيف يحاور نفسه، كيف يقرأ مضمونه، كيف يبني فكره، كيف ينتج علومه، كيف يفتح آفاق بحثه.

-وقف باشلار على كيفية بناء الحقيقة والسير نحوها، مشيرا إلى نسبيتها، حتى لا يجعل العقل متوقفا، ساكنا، مكتملا، نهائيا، إنه ألح على ضرورة أن يمد العقل عيناه إلى الأفق، أن يمتد بفكره إلى الأمام، أن يندفع نحو المغامرة والمخاطرة، إنه منهما يتعلم، ويفكر، وينتج، ويخطئ ولكنه يصحح باستمرار.

-تعلمنا العقلانية أن الوصول إلى الحقيقة نضال مستمر، لا يتوانى العقل في البحث عنها، إنها شبح يظل يترقبها في فيافي المعرفة وفي صحاري العلوم وفي فضاءات الفكر وفي بحار الفلسفة.

-تعلمنا العقلانية أنه ليس هناك منهجا واحدا ثابتا لا يتغير، إن المناهج تتجدد وتتغير بتغير موضوعات العلوم، إن هذا التغير ضرورة تمليها حتميات البحث.